

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ
الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا
⑤ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ⑥ فَمَنْ يَعْمَلْ

تأملات في سورة الزلزلة

خطب المناسبات

2023-02-23

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

مقصد سورة الزلزلة:



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ②
وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④
بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ⑤ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا
لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ⑥ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
يَرَهُ ⑦ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧

الحديث عن مظهر من مظاهر يوم القيامة

أيها الإخوة الأحباب، في الجزء الثلاثين من كتاب الله تعالى سورة مكية في قول كثير من أهل العلم، وهي سورة الزلزلة، ونحن في أجواء الزلزلة -نسأل الله السلامة لكم وللجميع- هذه السورة لها وقع خاص؛ لأنها تتحدث عن مظهر من مظاهر يوم القيامة، والإنسان عندما يقرأ هذه السورة يشعر بتلك المهابة، ومقصد السورة أن تحقق هذا الشعور في داخلك وفي داخلي؛ لأن الإنسان إذا خاف ارعوى، وانتهى، كثير من الناس يأتون بالرجاء، يأتون بالطمع، يأتون بالحب، لكن لا بد بين الفينة والأخرى مع الرجاء، والطمع، والحب، أن يكون هناك رهب وخوف، لأن الإنسان عند الرهب والخوف يسرع الخطأ أكثر مما يسرعها عند الرجاء، هب أن إنساناً قلت له: في نهاية هذا الطريق لؤلؤة ثمينة فاذهب وخذها، لا شك أنه يسرع الخطأ، ويسرع ليصل بأسرع وقت، ويأخذ تلك اللؤلؤة، ويحوز عليها وينتفع بها أو يثمنها، لكن كيف يمكن أن يسرع أكثر من تلك السرعة؟ لو أن إنساناً وراءه يركض وهو يحمل خنجراً في يده يريد أن ينال منه-نسأل الله السلامة- لا شك أن خطواته ستكون أسرع؛ فالإنسان في حالة الخوف غالباً ما يسرع أكثر من حالة الرجاء، لذلك يقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

{ من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة }

(رواه الترمذي)

بين الخوف والرجاء:



لا بد من الخوف والرجاء معاً

فإن الله تعالى لا يقدم لنا شيئاً يسيراً، يقدم لنا جنّة عرضها السماوات والأرض، فمع خوف من الله تعالى يجعل الخطأ سريعة للوصول إلى تلك الجنة، فلا بد من الخوف والرجاء، لا بد أن يتعاضد الخوف والرجاء معاً، فلا يكتفي الإنسان بالرجاء فقط، فيقعّد عن العمل، ويعتدّ برحمة ربه دون عمل، ولا ينبغي أيضاً أن يكتفي بالخوف فيقنط، ويخاف خوفاً مرضياً يدفعه إلى سوء علاقته بينه وبين ربه، وإنما المطلوب خوف وأمل، طمع وخوف، رعب ورهب، لذلك قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (16)

(سورة السجدة)

وفي آية أخرى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (90)

(سورة الأنبياء)

ولذلك قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50)

(سورة الحجر)

لا بد أن تنبئهم بالأميرين معاً، أن الله غفورٌ رحيمٌ، وفي الوقت نفسه عذابه أليمٌ لمن أصرَّ على المعاصي، والآثام، والظلم، والاعتداء، فالله تعالى بقدر مغفرته ورحمته فهو أيضاً شديد العذاب، فلا بد أن يجتمع في قلب المؤمن ذلك الخوف، وذلك الرجاء معاً، سورة الزلزلة تتحدث عن جانب الخوف، عن الجانب الثاني، وفي هذه الأيام ونحن نعيش تلك الأجواء التي فيها تلك الزلزلة، وهي من زلزلة الدنيا، وما أهون زلزلة الدنيا أمام زلزلة الآخرة، لا بد أن نقرأ هذه السورة ونفهم معانيها، يقول تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) يَا أَيُّهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا (5)

(سورة الزلزلة)

الزلزلة أمر واقع:



الزلزلة أمر واقع لا بد منه

(إِذَا زُلْزِلَتْ): يتحدث عن وقت الزلزلة، أي حين وقوع الزلزلة، وكأن الزلزلة أمر واقع لا بد منه، لا داعي للحديث عنه، نتحدث الآن عن وقتها فقط، الإنسان عموماً يتأكد من الحدث ثم يسأل عن وقته، فإذا قيل له: صدر قرار بتخفيض الجمارك، يقول له: هل تأكدت من الخبر؟ يقول له: نعم، يقول: متى التنفيذ؟ فالإنسان يتأكد من وقوع الحدث، ثم يسأل عن وقته، وقت وقوعه، الآية هنا تتحدث مباشرة عن وقت الوقوع؛ لأن الحدث مؤكد، لأنه خبرٌ من الله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (87)

(سورة النساء)

فلا يتصور أن مسلماً ينكر وقوع هذا الزلزال العظيم، لكن السؤال فقط متى يقع، هذا في علم الله، وكلُّ آتٍ قريب، فقال: **(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا)** وبنى زلزلت إلى ما لم يُسمَّ فاعله، في المدارس يعلموننا أن نقول: فعل مبنٍ للمعلوم وفعلٌ مبنٍ للمجهول، المبنى للمعلوم: أكل الولد التفاحة، للمجهول: أكلت التفاحة، لكن في كتاب الله تعالى لا تقولوا: فعل مبنٍ للمجهول، بل قولوا: فعل مبنٍ لِمَا لم يُسمَّ فاعله، إذ كثيراً ما يكون هذا الفاعل الذي لم يُسمَّ هو الله، وحاشاه أن يكون مجهولاً، وإنما لشدة العلم به لم يُسمَّ، بعكس المجهول تماماً، أحياناً أنت تقول: سرق البيوت، فأنت لا تعرف من سرقه، فتقول: سرق لأنك لا تعرف من سرقه، لكن إذا قلت كما في قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ۖ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (28)

(سورة النساء)

من خلقه؟ الله، فمن شدة العلم به لم يُسمَّ الفاعل في القرآن، فنقول: هذا فعل لم يُسمَّ فاعله، ولا نقول: هذا فعل مبنٍ للمجهول، لم يُسمَّ فاعله لحكمة بليغة بيانية.

الحكمة من استخدام فعل لم يُسمَّ فاعله:

هنا لم يُسمَّ فاعله لحكمتين:

الحكمة الأولى:



مُسَبَّب الأسباب هو الله

هي شدة العلم بالفاعل، فالفاعل هو الله، هو الذي يحرك الأرض في الدنيا والآخرة، وما نراه من تفسيرات علمية أحياناً لزلزلة الدنيا هي أسباب أرضية لا ينكرها عاقل، لكن مُسَبَّب الأسباب هو الله، يحركها متى يشاء، وبوقفها متى يشاء، لكن البعيدون الغافلون عن الله تعالى دائماً يحيون التفسيرات الأرضية وأن يُكتفى بها، لا يحيون ذكر التفسيرات الشرعية، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذَا دُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا دُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45)

(سورة الزمر)

يستبشرون عندما تذكر لهم الأسباب الأرضية، فإذا ذهبت لتحديثهم عن الله الفاعل جل جلاله مُسَبَّب الأسباب فإنهم يشمتون، يريدون فقط تفسيراً أرضياً لما يجري، فقال: (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا) السبب الأول لإخفاء الفاعل: هو شدة العلم به، فאלله تعالى هو الذي سيحرك الأرض في الدنيا وفي الآخرة فهو مسبب الأسباب.

الحكمة الثانية:

أن البناء لما لم يُسمَّ فاعله يعطي في النفس هبة، (إِذَا زُلْزِلَتْ وَكَانَ شَيْئاً لَا نَنْتَبِهَ لَهُ سَيَأْتِي بَعَثُهُ) (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا) ولو قال: إذا زلزلت الأرض لتتحقق المعنى، ولكن قال زلزالها للتوكيد، ولو قال جل جلاله: إذا زلزلت الأرض لثقل المعنى مع التوكيد، ولكنه قال: زلزالها ليؤكد، وليبين أن لها زلزالاً خاصاً بها ليس الذي تعرفونه، زلزال الأرض يوم القيامة ليس الذي نعرفه، اليوم يقول لك: الزلزال على مقياس ريختر 7.5 تهتز الأرض، ويقضي إلى ربهم 40 ألفاً نسأل الله أن يرحمهم برحمته، لكن أحياناً يقول لك: 5.5 على مقياس ريختر لم يحدث شيئاً، إذا قال 9 على مقياس ريختر لا تنقي ولا تذر، لكن زلزال الآخرة ليس 7 ولا 9، زلزال الآخرة الله أعلم بشدته، ثم هو ليس خاصاً بمكان معين، ليس في مدن، أو في محيط، أو في كيلو مترات، وإنما الأرض كلها سترلزل بكل ما فيها، بكل قاراتها، ببحارها، بجبالها، كلها سترلزل لذلك قال: زلزالها.

أثقال الأرض:

(وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا) الأثقال التي داخل الأرض كثيرة منها ما هو طبيعي مادي ومنها ما هو بشري، يعني الأثقال التي في الأرض من نפט ومعادن وحديد وبورانيوم، وكل ما في الأرض من أثقال، حتى البحار أثقال، حتى الجبال أثقال، وهناك أثقال تحملها الأرض في داخلها هؤلاء الذين ماتوا ودُفِنوا فيها من آدم إلى يوم القيامة، وما أكثرهم، كلها أثقال الأرض.

(وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا) الإنسان هنا ليس مقصوداً به مؤمن ولا كافر، وإنما الإنسان بجنس الإنسان، يقول: (مَا لَهَا) لشدة هول ما يحصل، يقول: ما الذي يحصل؟ ما للأرض؟ ماذا حدث؟ (مَا لَهَا) لشدة هول الموقف، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرْوُتُهُا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2)

(سورة الحج)

هَوْلُ زلزال يوم القيامة، الذين ذاقوا -نسأل الله السلامة- من هول هذا الزلزال الأخير قالوا شعرنا كأنه يوم القيامة؛ لأنهم لا يعرفون إلا ما ذاقوه، ولكن هو أشد من ذلك بكثير.

شهادة الأرض على الإنسان:



الأرض فيها أخبار

(وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا) الجواب قال: **(يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)** الأرض تحدث أخبارها، هذا المجلس الذي نجلس به الآن خيرٌ من أخبار الأرض، مُسَجَّلٌ عند الله تعالى، هذا خيرٌ من الأخبار؛ اجتمع قومٌ في بيوت من بيوت المسلمين يتدارسون آيات من كتاب الله، ويتلون بها بينهم، هذا خير من الأخبار، وفي الوقت نفسه هناك مجموعة من البشر تجمعوا يغتابون، وينمّون، ويخوضون في الأعراض، وفي الوقت نفسه هناك مجموعة تجمعوا يشربون الخمر، ويتابعون الكاسيات العاريات، هذه أخبار الأرض، الأخبار في الأرض سوف تحدث الأرض بها، الأرض سوف تنطق فتقول: في يوم كذا وكذا جرى في مكان كذا وكذا مجلس ذكر، وفي يوم كذا جرى مجلس ظلم في مكان آخر، تحدث الأرض أخبارها، وقد جاء في الحديث أن الصحابة الكرام سألوا النبي صلى الله عليه وسلم، قالوا: ما تحدث أخبارها؟ قال: تشهد على عمل كل عبد أو أمة عمله. كل عبد أو أمة تشهد الأرض على عمل عمله عليها، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر.

{ قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (يومئذ تحدث أخبارها) قال: أندرون ما أخبارها ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها أن تقول عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، قال: فهذا إخبارها ، فهذا أمرها فهذه أخبارها. {
(أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح)

(يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) لماذا حدثت بأخبارها الآن؟ **(يَا أَيُّهَا رَبُّكَ أَوْحَىٰ لَهَا)** أو لو سأل سائل كيف للأرض أن تتكلم؟ الأرض جماد، ونحن قد عهدنا أن المتكلم هو الإنسان، الكائنات الحية تتكلم، الإنسان نفقه كلامه، وربما تتكلم كائنات أخرى، ولا نفقه طريقة تواصلها، لكن أن يتكلم الجماد، الأرض، الصخور، الجبال، الجدران كيف تتكلم؟ قال: **(يَا أَيُّهَا رَبُّكَ أَوْحَىٰ لَهَا)** هذه باء السبب، فالله تعالى الذي أنطقك يُنطقها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21)

(سورة فصلت)

فالجلود تنطق، الأيدي والأرجل تتكلم بما كسبت أيدي الناس، فكل شيء يتكلم يوم القيامة، إلا الإنسان الذي أمضى حياته متكلماً هو الوحيد الصامت، هو أمضى حياته يتحدث ويدافع عن نفسه، يوم القيامة يقول ليده ورجله بعد أن تشهد عليه: عنكن كنت أناضل، ثم شهدتم ضدي! فكل حياتي كانت من أجل إمتاعكم، كي تأخذ اليد ما تريد، والرجل تمشي إلى المكان الذي تريد، والفرج يفعل الذي يريد، عنكن كنت أناضل، دافعت عنكم في الدنيا، فالإنسان البعيد عن الله يوم القيامة يقول تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ احْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108)

(سورة المؤمنون)

النطق هناك للشهادة، تشهد الأيدي والأرجل، تشهد الجلود، والأرض تشهد وتحدث أخبارها (يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا)

معنى الوحي:

الوحي لغة: (يَأْنِ رَبُّكَ أَوْحَىٰ لَهَا) بوحى من الله، الوحي في اللغة في الأصل: هو الإعلام بخفاء، أوحيت إليه؛ أي أعلمته بشيء من غير أن ينتبه الناس، فلو أردت من أخ من الموجودين شيئاً ولا أريد أن أعلم الناس به فأني أشير له إشارة بيدي فيفهم ماذا أريده، فأقول أوحيت إليه، أي أعلمته من غير أن يشعر أحد بما أريد، فالوحي لغة: هو الإعلام بخفاء.

والوحي اصطلاحاً: هو ما ينزل به جبريل الأمين على قلب نبيٍّ من أنبياء الله، بما يُعلمه من كلام الله تعالى.

الوحي بمعناه اللغوي في القرآن الكريم:

لكن استُخدم الوحي بمعناه اللغوي في القرآن الكريم، مثل ذلك قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68)

(سورة النحل)

فهو ليس الوحي المعروف بمعناه الاصطلاحي، وإنما هو الغريزة، أوحى لها: أي أعلمها كيف تبني بيوتها، فلذلك تجد نسبة الخطأ تكاد تكون معدومة عند النحل؛ لأنه وحي من الله.



الإنسان مُكلف ويخطئ:

الإنسان مُكلف يخطئ، الإنسان يبني بيتاً فيخطئ إما بجهل، أو يخطئ ظلماً وسرقة من المواد، فينهار البيت بأقلِّ هزة، يخطئ الإنسان إما جهلاً؛ معلوماته ناقصة بالهندسة، أو معلوماته كاملة لكنه يريد أن يسرق من مواد البناء، لأنه مُكلف سيحاسب.

النحل لما أوحى إليها الله جل جلاله، تبدأ النحلات كل نحلة من مكان لينوا بيوتهم بالشكل السداسي الذي هو الشكل الوحيد المُضلع الأكثر متانةً لقصر أضلاعه، والذي زواياه منفرجة لسهولة إخراج العسل منها، بخلاف الأشكال التي أضلاعها طويلة، فمقاومتها أضعف، أو زواياها قائمة أو حادة فإخراج العسل من داخلها أصعب، ومن غير فراغات بينية حتى لا يهدر مكاناً، لو بنى الشكل دائرياً يبقى هناك فراغات بينية تدخل فيها الأوساخ، وتهدر مكاناً، فشكل مُضلع لا يترك فراغات بينية هو الأفضل بين المضلعات؛ لقصر أضلاعه، ولأن زواياه منفرجة فيكون إخراج العسل منها سهلاً، وتبدأ كل نحلة من مكان في الخلية، ويجتمعن في الوسط، ويختمن الخلية السداسية كما هي، وفي المكان نفسه، ولو جئت اليوم وكنت على عجلة فقلت: دع كل بلاط يبدأ بالتلاط من زاوية من الغرفة يكاد يكون مستحيلاً أن يجتمعوا في نقطة المنتصف بشكل صحيح، يقول لك، ولو كنت مستعجلاً لكن تحتاج لبلاط واحد حتى يبلط بالشكل الصحيح، والنحل يبدأ من كل زاوية، وينشئ خلية، لماذا؟ لأن الله أوحى لها، ولما أوحى لها الله لم يعد هناك نسبة للخطأ، لا ظلماً أن تظلم في المواد، ولا جهلاً لأن الوحي من الله وحي غريزة، فقال: (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

فالوحي يأتي في القرآن بالمعنى اللغوي، وهنا بالمعنى اللغوي (يَأْنِ رَبُّكَ أَوْحَىٰ لَهَا) يعني أعطاهَا أمراً وأنتم لم تشعروا به، لا نشعر كيف أخذت الأمر، لكنها أخذت الأمر بأن تنطق، فيدات تحدث أخبارها.

انتهاء حكم الوقت والزمن في الآخرة:

الزمن يحكمنا في الدنيا، وسينتهي حكمه، مثلاً: القاضي في اليوم إلى كم قضية ينظر؟ 3، 4، 10، وبعدها سيقول لك انتهى، ربنا جل جلاله سينظر في مليارات القضايا، عدد لا متناهٍ من القضايا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْخَاسِعِينَ (62)

(سورة الأنعام)



الزمن يحكمنا في الدنيا

جل جلاله لأن الزمن لم يعد له حكم، كان مخلوقاً من مخلوقات الله يحكمنا، فنقول أستطيع أن أنجز معاملتين في الساعة، في ساعتين أربع معاملات، وإن ضغطت نفسي ممكن أن أنجز خمسة، ولكن أكثر لا أقدر؛ لأن الزمن يحكمك، الزمن يحكمني ويحكمك، لكن الزمن ما هو؟ مخلوق، فإذا أراد الله تعالى أن تنتهي مهمة الزمن كمخلوق يحكمنا فانتهي كل شيء، ستحدث أخبارها بكل ما فيها، ربما يتوان من زمن أهل الأرض، ربما اليوم، الله أعلم.

(يَوْمَئِذٍ نُخَبِّرُكَ بِأَخْبَارِهَا يَا رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا) بسبب أن ربك أوحى لها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6)

(سورة الزلزلة)

الآن انتقلنا لموقف ما بعد الحساب؛ لدينا في اللغة ورد وصدر، الشاعر الذي كان يفخر قال:
لأنهم أول من يردون الماء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَمَّا وَرَدَ مَاءٌ مَذْبُونٌ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْتَرَاتٍ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا هَٰذَا كُلُّكُمْ ۖ قَالَتْ لَا تَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأُبُوتَا شَيْخَ كَبِيرٍ (23)

(سورة القصص)

يفتخر بشجاعة قومه فقال:

ندخل على المعركة والرياح بيضاء، نخرج ونصير عن المعركة والرياح حمراء من شدة الدماء والنصر، هذا من شعراء الجاهلية:

فالدُّدور بعد الورود، فلما انتهى الحساب يصدر الناس، وكلُّ قد أخذ كتابه، فهذا الصدور سيكون أشتاتاً، يعني متفرقين، الأب ليس بالضرورة أن يخرج مع ابنه؛ لأن الأب استحق الجنة، والابن -والعباد بالله- استحق النار، والعكس صحيح، ليس بالضرورة أن يصدر الزوج مع زوجته، ليس بالضرورة أن يصدر الشريك مع شريكه، ولا الصديق مع صديقه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَاطْلَعْ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (55) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ (56)

(سورة الصافات)

أشتاتاً، يعني متفرقين؛ منهم من أخذ كتابه بيمينه، ومنهم من أخذ كتابه بشماله، ومنهم من استحق الجنة، ومنهم من استحق النار، ومنهم، فذلك قال: أشتاتاً، كل إنسان كتابه وحسابه، ويتجه إلى المكان الذي أعده الله له.

رؤية الناس نتيجة أعمالهم:

(تَوْمِنُ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّبُرْءِ أَعْمَالِهِمْ) أيضاً هذا الفعل مبني لما لم يُسمَّ فاعله، أي ليربهم الله أعمالهم، هنا المقصود ليس أعمالهم أي العمل، وإنما نتيجة العمل، هم صدروا بالحساب، فالآن عندما يرى، مثال: إذا كان هناك طالب تعب واجتهد، وحصل شهادة عليا، ثم أخذ له والده عيادة في مكان مرموق في المدينة، وقال له الآن ادخل إلى العيادة، وانظر إلى عملك، هذا الذي يراه هو عمله الذي عمله، باللمحة التي ينظر بها إلى الكرسي والمكتب المرتب، وغرفة المراجعة، والتكليف، والده أعيد له عيادة جيدة، اللحظة التي ينظر لها بلحظة يمر عليه كل عمله، ويتذكر كل دقيقة قضاها في الدراسة، والتعب، والتصب، والسفر، والاختصاص، والآن رأى عمله، فالذي رآه الآن هو نتيجة العمل، لكن في الحقيقة هو العمل نفسه، فقال: (لَبُرْءِ أَعْمَالِهِمْ) أي نتائج عملهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)

الْخَيْلُ لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ:

في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم في حديث طويل عن الخيل فقال:

{ الْخَيْلُ لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ؛ فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ: فَرَجُلٌ رَتَبَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأَطَالَ بِهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْصَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيلِهَا ذَلِكَ مِنَ الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْصَةِ، كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ، وَلَوْ أَنَّهُ انْقَطَعَ طِيلُهَا، فَاسْتَنَّتْ شَرْقًا أَوْ شَرْقَيْنِ، كَانَتْ أَنْارُهَا وَأَزْوَائُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِتَهْرٍ، فَتَشَرَّبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَشْفِي، كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ، فَهِيَ لِذَلِكَ أَجْرٌ. وَرَجُلٌ رَتَبَهَا تَعَبًا وَتَعَفُّقًا، ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا طُحُورِهَا؛ فَهِيَ لِذَلِكَ سِتْرٌ. وَرَجُلٌ رَتَبَهَا قَحْرًا وَرِبَاءً وَنَوَاءً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وَزْرٌ. وَشَيْلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخُمْرِ، فَقَالَ: مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهَا شَيْءٌ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْجَامِعَةُ الْقَادَّةُ: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} }

(صحيح البخاري)

يعني الخيل التي يركبها الناس قد تكون لرجل أجراً: (فَأَمَّا الَّذِي هِيَ لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَتَبَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) وإذا عممنا كلام الأجر؛ يعني إذا استخدمها في طاعة الله، في خدمة عباد الله، فهي له أجر.

وقد تكون للإنسان ستراً تستره، لا يأتي فيها محترماً، لكن لا يأتي فيها طاعة، ستر؛ يعني لا يأتي فيها أفصد خدمة للناس، وقد تكون وزراً لإنسان جعلها في عداوة الحق، وأهل الحق.



فليُنظر كل منا في سيارته

بالمناسبة قبل أن تتم الحديث وما علاقته بسورة الزلزلة، اليوم السيارة محل الخيل، كل منا، أو ممن منا يملك سيارة، أو يستأجر سيارة، فهذه السيارة التي بين يديك الآن، التي هي لله في يدي وفي يدك هي مكان الخيل، فيمكن أن تكون أجراً، أو سِتْرًا، أو وزراً، كل إنسان ينظر لسيارته من أي نوع؟ إذا كان يستخدمها للخير والحق، إذا وجد إنساناً مقطوعاً يركبه معه ويوصله، إذا كان هناك مساعدات يأخذهم، ويوصلهم، يركبها فيأخذ أغراضاً لجيرانه الذين لا يملكون سيارة، وعندهم شخص مريض يوصله، مُسَخَّرًا لخدمة الحق، هذه السيارة أجر، حتى إذا كان لخدمة عائلته لا تخلو من أجر.

وأحياناً تكون سترًا، يعني لا يوجد أعمال صالحة كثيرة للسيارة، لكنها تكفيه مذلّة انتظار الوسائط العامة، وأتى الباص ولم يأت، وربما معه زوجته، والخروج بالوسائط العامة صعب، فزوجته محبة لا تستطيع الدخول بمكان فيه ازدحام أو كذا، فتستره وتستر أهله، فهذه ستر.

وربما بعض الناس -والعباد بالله- السيارة له وزر، يذهب بها إلى أماكن اللهو المحرمة، يخرج فيها معه من النساء ممن لا تحل له، فأصبحت السيارة وزراً عليه؛ لأنه يستخدمها في الباطل، فالسيارة كالخيل: أجر- كما قال صلى الله عليه وسلم- وستر ووزر، انظروا إلى كلام النبي صلى الله عليه وسلم، لا تستطيع أن تجد من هذه البلاغة، قال:

(الخيْلُ لِرَجُلٍ أَجْزَ وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ) باختصار، فكل إنسان ينظر في مركبته نسأل الله أن تكون جميع مركباتنا من باب الأجر والستر.

فأتم النبي -صلى الله عليه وسلم- وتكلم عن الأجر، والوزر، والستر، والحديث في البخاري، فلما انتهى سأله أحد الصحابة قال: فماذا عن الخُمُر؟ يعني جمع حمار، هذه عن الخيل، لو الإنسان اشترى حماراً، ممكن أم يكون وزراً وأجراً وستراً؟ يسأله، يبدو أن السائل ليس عنده خيل، عنده حمار، فأراد أن يسأل عن كل الدواب، فقال له صلى الله عليه وسلم: **(مَا أَنْزَلَ عَلَيَّ فِيهَا شَيْءٌ إِلَّا هَذِهِ الْيَامَةُ الْقَادَّةُ)**: الفأدة: يعني الفريدة التي ليس لها مثيل، الجامعة: يعني التي فيها معان جامعة لكل شيء **(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)** يعني أجابه بأية عامة، جامعة، شاملة، فريدة، وكأنه قال له: حتى الحُمُر، وحتى كل شيء في حيائك، وحتى في المستقبل كما قلت لكم قبل قليل السيارات، وكل ما تملكه يدخل ضمن هذا الحديث لأنه: **(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)**.

آياتن جامعتان:

لو لم يكن في كتاب الله تعالى كما قال بعض أهل العلم إلا هاتان الآيتان لكفتا **(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)** وابن مسعود يقول: هذه أحكم آية في كتاب الله، آية محكمة واضحة **(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ)** الذرة عند العرب: النملة الصغيرة عند الولادة، اليوم الذرة في مصطلحاتنا العلمية لها معانٍ؛ الشيء الذي لا يُرى بالعين، وحتى بكثير من المجاهر والتيلسكوبات لا يُرى، وهي أصغر جُزء موجود، لكن الذرة في وقت نزول الوحي، وهذا الذي يعيننا، لأننا نفسر الآيات وقت نزول الوحي، الذرة هي النمل الصغير، وقال بعضهم: الهباء الذي في الهواء، الآن لا نرى هباءً في الهواء، لكن لو أن الشمس دخلت صباحاً من النافذة ونظرت في دخول الشمس تجد ذرات بسيطة في الهواء لا تُرى إلا مع شمس قوية، هذه هي الذرة، أو النملة الصغيرة حديثة الولادة، هذه معاني الذرة.

مثقال: يعني يوزن هذه النملة، كم وزنها؟ أقل من غرام.

خيراً: يعني يعمل خيراً بمقدار هذا الأمر. يره: يعني يره يوم القيامة ويرى نتيجته، ويرى ثوابه، ويرى مقعده من الجنة بسببه.

نتيجة الخير والشر:



لا يضع شيء عند الله عز وجل

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) يعني شرّاً يوزن الذرة، فإنه يراه يوم القيامة، لا يضع شيء عند الله عز وجل، عند البشر ممكن أن يضع، ممكن أن تقول أحسنت لأحدهم الدهر كله، ثم إذا رأت منك -كما قال صلى الله عليه وسلم- شيئاً قالت: لم أر منك خيراً قط، تهدر العمل ثمانية، حتى في علاقاتنا اليبينية نحن تهدر أعمال بعضنا، طبعاً هذا ليس من الموضوعية، وينبغي أن نتنبه له، لكن هذا واقع، يكون الإنسان أمضى حياته في الخير، والدعوة، ونشر الحق والخير، ثم يخطئ خطأ فينسى الناس كل معرفته، وكل إصلاحه، وكل خيره، ويتجهون إلى خطئه فيشبهون إليه بالبنان، فالتناس ينسون كثيراً من الصالحات، وأحياناً بالعكس، يكون الإنسان قد أمضى حياته بالفسق، والفجور، ونشر الباطل بين الناس، ثم يظهر منه عمل إنساني فيه دعم أو كذا، فيقول الناس انظر لفلان ماذا يفعل وأنتم لا تفعلون، وينسب ماضيه بما فيه، هو لم يتب، لا أقول تاب، إذا تاب فلننسى ماضيه، لكن ما زال على أخطائه، ونشره للباطل، لكن بمجرد أنه صدر منه عمل إنساني يمدحه الناس، فالتناس أحياناً تنكر الماضي الحسن بشيء سيئ، وتنكر الماضي السيئ بشيء حسن، عند ربنا جل جلاله لا يضع شيء، الله تعالى الحساب عنده دقيق جداً، يسأل عن كل شيء، ويحاسب عن كل شيء، فالخير له نتيجة خير، والشر له نتيجة شر **(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)**.

والله لو أن إنساناً أنقذ نملة وهو عند المغسلة بحقل أو ببستان، فتأخر قليلاً في غسل يديه حتى خرجت النملة، هذا مقدار الذرة، هذا سوف يراه خيراً يوم القيامة، لا يضع شيء عند الله عز وجل، وسيفاجأ الإنسان يوم القيامة أن هناك أعمال كثيرة فعلها ونسبها سيئفل بها ميزانه، وينجو بها عند ربه، لشدة إخلاصه في هذا العمل الذي لم يأبه له، ولم ينتبه له، وفعله وهو لا يدري أنه سيكون يوم القيامة كجبل أحد، فالله تعالى ينمي الصدقات، وينمي الخير، ويعطي على القليل كثيراً، فالآية بقدر ما هي مُبَسَّرة، بقدر ما هي مُخَفِّفة، فيها تيشيّر عظيم أن الإنسان مهما فعل من عمل بسيط سيحده يوم القيامة، وبالوقت نفسه فإنها تخيف لأنه لا يضع شيء عند الله، فليحذر الإنسان أن يأتي بشيء لا سيما ما كان بينه وبين العباد، من ظلم، أو إساءة، فإنه سيراه يوم القيامة أمامه.

الخاتمة:

هذه سورة الزلزلة في هذه الأجواء المزلزلة، نسأل الله السلامة، ونسأل الله أن يرحم من قضى إليه، وأن يشفي الجرحى ويعافي المصابين، وأن يجعل لنا سهماً، وعملاً متقبلاً في نصرة هؤلاء وعونهم.

والحمد لله رب العالمين